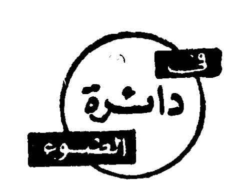
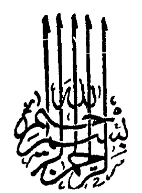


هزيمة الاستشراق

في ملتقى الإسلام

أنور الجندي

دار الإصلاح
للطبع والنشر
السعودية - الدمام



هزيمة الاستشراق

في ملتقى الإسلام

كان من ابرز منجزات الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامى — الذى عقد فى (ثامرانست) بالجزائر فى المدة من ٢٩ أغسطس الى ٩ سبتمبر ١٩٧٩ م — هو كشف زيف مجموعة كبيرة من المستشرقين ، وكتاب الغرب الذين شاركوا فيه ، فقد عرضوا وجهات نظرهم فى كثير من القضايا الاسلامية ، من منطلق الفكر الاستشراقى المنحرف المضلل ، فتصدى لهم كثير من علماء المسلمين أمثال : محمد المبارك ومعروف الدواليبى وفاضل الجمالى ومحمد سعيد البوطى وكاتب هذه السطور بالرد والمعارضة والتعليق والتعقيب .

* * *

وفر المستشرقون كالطير الخائف أمام كلمة الحق

التى كشفت زيفهم وانحرافهم

من العجيب أنهم فروا كالطير الخائف المرتجف أمام كلمة الحق ، وتراجعوا ولفوا فى اجاباتهم ، ولكنهم احسوا — وربما لاول مرة — بتلك المعارضة القوية التى أبداها كتاب الاسلام وعلماؤه وذلك الأسلوب العلمى الصحيح الذى قدموا به ردودهم ، وكشفوا به زيف دعاوى الاستشراق .

حديث معـــاد وحجج باطلة .

لم تكن كلمات هؤلاء الكتاب فى الحقيقة الا ترديدا لمـــا قرأناه كثيرا ، وما نشر من كتـــابات جـــولد زيهر ومرجليوث وشاخت وماسينون وجب ، وغيرهم من متعصبة الاستشراق وجاء اليوم روجيه جارودى ومونتجمرى وات واتبـــاعهم من أمثال جوردن نيف وادوارد شوبرتر وغـــيرهم من تلامـــذة المبشرين ليرددوها ، وقد تبين من حصيلة ما قدم المستشرقون مـــا يلى :

أولا : انهم لا يتابعون النهضة الاسلامية الحديثة ، ولا يقرأون ما قدمه فى السنوات الأخيرة كتاب مسلمون متفتحون يستمدون فكرهم من المصادر الاصيلة ، ومن المنابع الاولى ، وهم الذين عرفوا برجال حركة اليقظة الاسلامية .

ثانيا : انهم يتجاهلون هذا التيار الضخم من الاصـــالة والعودة الى الاسلام والابحاث العلمية الجادة ، التى قننت الشريعة الاسلامية ، أو قدمت اجابات عصرية واضحة لمفاهيم الاســـــلام .

ثالثا : انهم ما زالوا يلوكون تلك الشـــبهات القديمـــة ويرددونها ، فهم مثلا لم يتقبلوا بعد — وما زالوا يتجاهلون — تلك الوثائق الصحيحة التى كشفت عنها الدراسات ، خاصة بشأن السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية ، وبروتوكولات

صهيون ومخططات المؤامرة الثلاثية للنفوذ الاجنبى والشيوعية والصهيونية ، وما يتصل بالماسونية ، ودورها فى الثـورة الفرنسية واسقاط الدولة العثمانية .

رابعا : انهم ما زالوا يرفعون من اقــدار الشعوبية وابحاث الباطنية والمجوسية ، التى تلتحق بالتصوف الفلسفى وعلم الكلام ، والمعتزلة والفلاسفة المشائين ، المتــابعين للفكر اليونانى امثال الفارابى وابن سينا (وقد تبين اخيرا انهم من الباطنية اتباع القرامطة وغيرهم) .

خامسا : انهم ما زالوا يحجبون تماما ذلك العطــاء الاسلامى السخى الذى قدمه ابن تيمية وابن حنبل وابن القيم والشافعى والمــاوردى وابن حزم ، ويشيحون عنــه فى كراهية وحقد ، ويقفون عند تلك الأبحاث التى تتصــل بابن الراوندى والحلاج وابن عربى ومن تابع الفلسفة اليونانية ، حتى أذا عرضوا للامام الغزالى لم يقدموه الا فى صورة تابع للفلسفة اليونانية .

سادسا : لقد كشفوا عن انهم لا يملكون شيئا ايجابيا او صالحا — فى هذه الفترة — يمكن أن يقدموه للمسلمين فى مجال الحاجة الى وجهة نظرهم ، فما زالت اهواؤهم تسيطر على عطائهم فهم يقدمون السموم والاساطير والآراء الضالة او على الاقل يقدمون تجربة مجتمعاتهم الفاسدة ، وليست لهم قدرة حقيقية على أن يستوعبوا أحوال مجتمعات المسلمين ،

ليقدموا لها شيئا ينفع ، كما أن عطاءهم قليل وغير مجـد ، وغير ايجابى ويمكن الاستغناء عنه .

ولذلك فان استدعاءهم الى الملتقيات الاسلامية ، يجب أن يكون محوطا بقدر كبير من الحذر ، وخاصة اذا كانت هناك مجموعات من الشباب لم يستوعب بعد ثقافة اسلامية عميقة، تعصمهم من شبهات المستشرقين التى قدموها واعلنوا صراحة أنهم يقدمونها للشباب .

سابعا : ان محاولة مناقشة آراء المستشرقين بتقديمهم فى هذه الملتقيات قد كشف زيفهم ، وبين ان المنهج (العلمى!) الذى يعتمدون عليه فى البحث مضلل وقائم على الاهواء . وهم يستعملونه فى المغالطة بتحريف النصوص أو تأويلها ، أو المراوغة فى شرحها ، أو التضليل فى التعليق عليها واثارة الشبهات منها ، وليست لديهم القدرة الحقيقية على الرجوع الى الحق ، اذا تبين لهم أو اذا علموه ، وهم يصرون على باطلهم ويراوغون ، أما بالتغاضى عن التعقيبات التى توجه اليهم واما بالتمويه بالتعلق بأذيال خيوط باهتة لتبرير آرائهم .

* * *

دور الاسلام فى القرن الخامس عشر :

كانت ابرز الموضوعات التى قدمت فى الملتقى عن آفاق المستقبل ، بمناسبة قرب قدوم القرن الخامس عشر ، ودور الحضارة الاسلامية ومعطياتها ، وقد تحدث كثير من الباحثين فى هذه النقطة وفى هذه النقطة جاءت اغلب شبهات المستشرقين .

فقد عرض الدكتور ارجمند كورات لمفهوم العصرانية ، كعامل من عوامل النهضة الاسلامية وقدم جملة افكار مما كان يردده المستشرقون فى الثلاثينات من هذا القرن ، وقد كشفنا له ان هذه الافكار لم تعد ذات موضوع ، بعد أن ظهرت حقائق كثيرة ، تكشف عن أن هذه الافكار لم تعد تمثل منطق التاريخ الاسلامى الصحيح ، وخاصة فيما يتعلق بالسلطان عبد الحميد ، وجماعة الاتحاد والترقى ، والدعوة التى حملها خير الدين التونسى وغيره ضمن مفهوم العصرانية .

اتهـام برىء :

أما بالنسبة للسلطان عبد الحميد ، فقد كشفت الوثائق عن انه لم يكن اوتوقراطيا ولم يكن ديكتاتورا ظالما يحارب دعاة الحرية ، بل على العكس من ذلك كان من اكبر العاملين لجمع وحدة العالم الاسلامى ، ولمقاومة ذلك التيار الخبيث

الذى تخفى وراءه الاتحاديون ، وتركيا الفتاة ومدحت وغيرهم ، وهم الجماعة الذين عرفوا بولائهم للدونمة من ناحية ، ولانصارهم فى المحافل الماسونية التى اقامها اليهود من ناحية اخرى ، والذين كانوا يعملون فى خدمة مخطط الصهيونية الذى كان يستهدف الوصول الى فلسطين : ذلك المخطط الذى جندوا له كل القوى لاغراء السلطان عبد الحميد ، حين عرضوا عليه خمسين مليونا من الجنيهات — على حد عبارة هرتزل فى مذكراته — والذى رفض كل محاولات اغرائهم ، فكان أن عمدوا الى تهديده واسقاطه على النحو الذى حدث سنة ١٩٠٩ م بتلك المؤامرة الخبيثة التى حمل لواءها (قرة صو) اليهودى وغيره .

وهذه الحقائق التى ظهرت اخيرا ، تكشف فساد الصورة التى حاول الغرب رسمها — كراهية منه فى الدولة العثمانية — والتى لم تعد تصلح لان تقدم للمسلمين والعرب اليوم مرة اخرى ، بعد أن اصبحت خارج التاريخ الصحيح .

ولقد حاول هذا الباحث ان يسمى هذه المؤامرة خطوة فى طريق العصرانية ونسبها الى الثورة الفرنسية ، التى تعرف أن اليهودية العالمية هى التى قامت بها لاسقاط الوحدة المسيحية الاوربية ، ولقد كانت هناك حقا محاولة من مستنيرى الشرق للخروج من مأزق التخلف ، وذلك باعادة النظر فى الفكر الاوربى الحديث اذ ذاك ، وكان خير الدين ورفاعة الطهطاوى ، يريان أن هذا الفكر الذى يحمل لواء الحرية والشورى ، انما هو فى الأساس فكر اسلامى نقل من مصادرنا ، ولكنهم لم يكونوا بعيدى النظر ، فى تقدير ان هذا الفكر قد انصهر فى بوتقة الفكر اليونانى

والرومـــانى ، وانـــه لـــم يعـــد يصـــلح لنـــــا ، وقد تنبه الى ذلك المسلمون بعد ذلك وعرفوا أن مفهـــوم العصرانية الاوربى هذا ، ليس الا محاولة من محـــاولات الاحتواء والتغريب والغزو الثقافى ، وذلك بعد أن سقطت البلاد العربية أسيرةالنفوذ الاجنبى ، وفرض عليها التخلى عن تطبيق الشريعة الاسلامية ، التى استبدلت بالقـــانون الوضعى واقامة نظام الربا الاقتصادى ، كما حجبت التربية الاسلامية .

* * *

العصرانية تعنى النكسة

واليوم يرى المسلمون أن مفهوم (العصرانية) هذا لم يحقق لهم الا الهزيمة والنكبة والنكسة ، وان كان كل ما حل بهم منذ عام ١٩٤٨ م هو من نتائج احتوائهم داخل العصرانية، وأن هذه المحاولة قد استهدفت فصل عناصر المسلمين : عربا وتركا ، وغيرهم واوقعت الخلاف بينهم ، وأسقطت خلافتهم ومهدت لوضعهم فى قوالب الاقليمية والعلمانية والقوميـة الوافدة .

كذلك فان المسلمين اليوم يعلمون أن اتخـاذ أسلوب الغرب فى التسلح ، وتقليدهم فى العسكرية الاوربية لـم يكن ليحقق شيئا دون أن يقمموا المنهج الاسلامى أولا .

اما المرحلة الجديدة التى اشار اليها البـاحث والتى بدات عام ١٩٠٩ فهى مرحلة ضياع طرابلس الغرب ودخول اليهود الى فلسطين ، والصراع بين الترك والعرب ، وقـد

خدع العرب بالاتحـــــاديين اولا ، ولكنهم عرفوا حقيقتهم اخـــيرا .

هذا ما ووجه به دعاة العصرانيـــة والمتهجمين على السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية ووصف التيار القوى الوافد بأنه تيـــار النهضة .

المجتمع والحضـــــارة

كذلك ووجه الدكتور جوردن فى بحثه عن « الاحتكاكات بين المجتمع والحضارة الغربية» وما أورده من مفاهيم منحرفة، بردود قوية دحضت أخطاءه فقـــد ظل يتحـــدث عن معركة القديم والجديد والتقليد والمعاصرة فى الفكر الاســـــلامى الحديث ، وذلك فى محاولة للقول بأنه توجد الآن ولا تزال : هوة واسعة وصراع شديد بين التقليد والمعاصرة ، وهـــذه نغمة قديمة يرددها الباحثون الغربيون وعملاؤهم وقـــــد لفتنا أنظارهم الى أنها لم تعد موجودة اليوم ، بعد أن ظهر التيار الجديد من الاصالة واليقظة الاسلامية ، الذى أقـــام فعلا قاعدة ضخمة على طول العالم الاسلامى وعرضه ، يضىء الطريق أمام فهم واختيار التراث والوافد على السواء، ومحاكمته على مفهوم التوحيد الخالص ، وأنه لم تعد هناك فجوة بعد أن كشفت حركة اليقظة الاسلامية ، عن أن المنهج الاسلامى القرآنى هو الأســـــاس ، وهو منهج لا يمكن أن يوصف بالجمود ، لأنه يقوم على أصول عامة وأطر واسعة تستطيع أن تستوعب التقدم المادى دون أن تنصهر فيه .

* * *

فالاسلام يؤمن باقامة اطار من الثوابت والضــوابط التى لا تتغير ولا تتحول امام تطور المجتمعات أو تغـــير الزمن ، هذه الثوابت هى الاصل الاصيل ، الذى تحاكم اليه معطيات الامم والعصور والحضارات ، فتقبل منها وترفض ، وتسبغ ما تقبله وتصهره فى بوتقة فكرهـــا ، حتى لا يكون المسلمون به نسخا متشابهة من الامم وقد كانت هـــذه القاعدة قائمة وموجودة ، ابان نهضة الفكر الاسلامى فى القرن الثالث فقد واجهت كل ما ترجم عن اليونان والفــرس والهند من تراث ، فعرضته على مقاييس التوحيد الخالص، وقبلت منه ما كان صالحا ثم صهرته فى بوتقتها ، وواجهت فى حزم وقوة كل سموم الفكر البشرى والوثنى والمجـوسى واليونانى والغنوصى ، الذى تسرب الى علم الكلام والفلسفة والتصوف ، ثم كشفت زيفه واعادت بناء مفهوم فكر السنة الجامع ، القرآنى المصدر .

كذلك نحن اليوم بعد ان اجتاحت الفكر الاســلامى ، عواصف الفكر الغربى والمــاركسى والبــاطنى والوجــودى وغيره ، فاننا نؤمن بوجود قاعدة اساسية هى « المنهــج القرآنى » الذى تحاكم اليه كل ما يقدم الينا .

هــذه القاعدة الحقيقية التى قامت بأيدى مجموعـــة عظيمة ، من اعلام فكرنا الاسلامى المعاصر ، امثال اقبال وابن باديس والمودودى والندوى وحسن البنا ومالك بن بنى ومحمد المبارك وغيرهم ، قد انهت الى غير رجعــــة تلك الصورة التى يحاول كتاب الغرب رسمها على أنها تمثـــل

معسكرين متصارعين ، والحقيقة ان المسلمين اليـــــوم لـــم يعودوا يقبلون الخضوع لفكرة مسبقة تفرض عليهم الاختيار، بين الاصالة والمعاصرة أو بين التراث الاسلامى والفـــــكر الوافد أو يوضعوا موضع الامتحان على هذا النحو .

منهـــج القرآن :

فالمسلمون لن يضحوا باصالتهم مطلقا ، فى ســــبيل العصرانية أو الحداثة ،ويرون أن منهجهم القرآنى الاصيل هو أسلوب العيش الوحيد ، الذى يقبلونه ، وان كل العلوم والمعطيات الحديثة هى (مواد خام) يجب أن تنصهر فى بوتقة فكرهم لبناء حضارة الاسلام المتجددة ، التى تقــــوم على التوحيد والعدل والرحمة والاخـــاء البشرى ، وأن فكرهم الاسلامى القرآنى هو وحده الذى يستطيع ان يضعهم على طريق التقدم الحقيقى الجامع للمعنويات والماديات .

ولقد دعونا المستشرقين وكتاب الغرب أن يدرســـوا بانصاف ذلك التيار الجديد من الاصالة واليقظة الاسلامية لقد كان المستشرقون فى مطلع هذا القرن يتتلمـــذون على علماء المسلمين أمثال احمد زكى باشا واحمد تيمور ويسألونهم عن الحقائق . واذا أخطأوا زجرهم هؤلاء الرجال ولكنهم لم يلبثوا ان كونوا أجيالا تدين لهم وتخضع لفـــكرهم وتنشر أفكارهم أمثال طه حسين وزكى نجيب محمود ومحمود عزمى وأمين الخولى، واليوم نشهد المؤتمرات الاسلامية وقد كشفت زيف هؤلاء ، فعادوا مرة أخرى ليستمعوا الى كلمة الحق ، من ثنايا رجال مؤمنين باسلامهم ولا يجدون أنفســــهم الا خاضعين أمام الحقيقة وهذه علامة جديدة فى مجال الفكر الاسلامى المعـــاصر .

السموم فى حقل التربية :

كذلك تناول المؤتمر بالبحث موضوع التربية الاسلامية، وتدمت ابحاث جيدة ، ولكن المستشرقين قدموا سمومهم أيضا وحاولوا تدمير مفاهيم التربية الاسلامية الاصيلة ، بأن قدم احدهم بعض الاساطير القديمة ، وتحدثت واحدة عن المراهقة ، وتحدث أحدهم عن عصر ما بعد الاسرة ، وقد كشفت زيفه معلقا أن الكاتب قد أعطى صورة عن المجتمع الغربى وعن ما وصل اليه من فساد وتحلل وهزيمة ، وليس هو ما طلب منه ليقدمه لنا ، ولكن المطلوب منا أن نعى هذه التجربة الغربية حتى لا نقع فيها ، ولنعرف أن منطلق الحضارة الغربية فى مسائل المراة والمجتمع التى قد تبرق بريق الاعجاب أمام بعض شبابنا وشاباتنا ، ليس الا اتجاها مسموما للانحدار والتمزق ولن يصل مجتمعنا بفضل الله الى هذه الصورة المظلمة ، ذلك أن لنا من مفاهيمنا وقيمنا ما يحول بيننا وبين السقوط فى هذه الهوة .

ان هناك خلافا عميقا بين نظرتنا الى الاشياء والحلول التى نراها لها وبين هذا المجتمع .

ان هؤلاء ينطلقون من تفسيرات الفكر المادى ومفاهيم العلوم الاجتماعية ، التى صنعها اليوم لتدمير البشرية ، انهم يرون الاختلاط فى الرحلات هو أحد حلول المراهقة ، ونحن لا نرى هذا الرأى ولكن نرى الاتجاه الدينى المستنير وعدم الاختلاط هو الحل . كذلك هم يواجهون الغرائز عن طريق الاثارة ، ولكننا نرى طريق اعلاء الرغبات والتسامى والاعتصام بالصوم وتقوى الله ، ونحن نؤمن بالقدوة الطيبة

فى البيت والمدرسة والشـــــارع ، وهى ما تزال منطلق التربية الاسلامية .

عودة الى البيت :

وبالنسبة للمراة فقد وجهت أسئلة كثيرة بشأن ماعرضناه عن أن القرن الخامس عشر ، سيشهد للمرأة العاملة بالرجوع الى البيت فقلت فى الاجابة :

سوف نرى المراة المسلمة خلال القرن الخامس عشر، راغبة بغير قسر ولا الزام ، الى التماس مفهوم الاصـــــالة فى رسالتها الحقة ، وانها سوف تختار الافضـــل ، وترى الاهمية الخطيرة فى حماية الطفولة والاسرة ، وتفضله على العمل الخارجى ، الذى لم يكن فى عصور الاسلام الاولى ، على هذه الصورة المحدثة الوافدة التى تفقد الاجيال الجديدة الحنان والامومة ، والعطاء الذى يشكل وجدان الابناء ، هذا مع أن الاسلام لا يمنع عمل المراة فى أوضاع صالحة لبنيتها ، وقريبة من وظيفتها الاجتماعية ، ولكنه يجعـــــل لمسئولية الاسرة والطفولة أسبقية خطيرة هذا ولم يمنع الاسلام ، يوما من أن تحضر المراة ندوات العلم او تشارك فيها ، ولا علاقة بين هذا وبين عمل المراة اساسا .

حديث العلمـــــانية :

وتطرق حديث المستشرقين الى العلمانية والدعوة الى تطبيقها فى البلاد الاسلامية فقال الدكتور الدواليبى :

« ان العلمانية عندما نشأت فقد دعت اليها الحركة اليهودية ، متأثرة بسلطان الفاتيكان ، وكان الحكم الدنيوى يخضع لسلطتين : الالهية والدنيوية والسلطة الدنيوية لم تكن تمارس عملها ما لم تجيزها الالهية ، فالخطأ كبير عندما يشبه الحكم الاسلامى بأنه حكم اوتوقراطى ، وينبغى أن يحل محله العلمانى .

والحكم العلمانى الذى دعت اليه اليهودية فى اوربا هو ازالة السلطة الملكية ، والحكم فى الاسلام حكم شورى، فالحاكم ينبغى أن يكون منتخباوليس باسم الله كما كان فى حكومات البابوية ، والدولة تقوم على الشريعة الاسلامية التى هى عبارة عن أحكام وقوانين مدنية تستمد احكامها للمسلمين من القرآن والسنة ، ومن هنا فلا حاجة للمسلمين للحكم العلمانى لأن الاسلام لا يعرف السلطة الكهنوتية .

جوانب ايجابية :

وكانت فى الملتقى الاسلامى جوانب ايجابية كثيرة ، منها محاضرة الدكتور بوكاى عن العلم فى القرآن ، ومحاضرة الدكتورة المسلمة فيتراى ماير دفيش ، عن التربية والتعليم فى الثقافة الاسلامية أما اشهر المحاضرين فى الملتقى فكانوا: الدكتور محمد المبارك ، محمد عبد الله عنان ، محمد عبد الهادى أبو ريدة ، محمد فاضل الجمالى .

كذلك فقد اشتركت فى المؤتمر نماذج عربية واسلامية كثيرة من كل بلاد العرب ومن الصين وايران وتركيا ومسلمى

آسيا الوسطى والملايو ومسلمى يوغوسلافيا واندونيسيا وباكستان .

وأثارت محاضرة الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الاردنى تعليقات هامة وكانت عن اللغة العربية وتعريب التعليم الجامعى .

وكانت، هناك لقاءات كثيرة فى التليفزيون والصحافة مع أعضاء المؤتر وكانت اسئلة الطلبة والطالبات فى غاية الذكاء والتفتح .

ودرس المجتمعون مجتمع (تامنراست) الواقع فى جنوب الجزائر والمجاور لمالى والنيجر وشاهدوا خلال رحلات طويلة تلك الآثار العريقة للمنطقة ، والجبال الشاهقة واستضافهم سكان جبال الهجار من الملثمين والطوارق الاشداء الابطال الذين قاوموا الاستعمار الفرنسى .

وكانت النقطة الاولى من ابحاث المؤتمر عن دراسة هذه المنطقة والشخصيات البارزة فى تاريخها ، ودراسة انتشار الحضارة الاسلامية من الصحراء الكبرى وافريقيا السوداء الى أوربا ، ودراسة تاريخ الراهب شارل دءفوكو الذى قتله الملثمون .

---

(١) الدونمة : هم اليهود الذين خرجوا من الاندلس بعد سقوطها فى يد الاسبان وهاجروا الى تركيا العثمانية الاسلامية واقاموا على حدود سالونيك وكانوا ٥٠ الفا وهم خميرة المخطط الصهيونى فى اسقاط الدولة الاسلامية .

وبالجملة فان الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامى كان خصبا وعامرا بالأبحاث خلال عشرة أيام كاملة تجمع به خلالها أكثر من مائة عالم وباحث من مختلف انحاء اوربا وآسيا وافريقيا وكان غاية فى التوفيق وقد حقق اهدافه تماما .

* * *

قضية الدولة العثمانية

عقد الملتقى الاسلامى الثامن فى ولاية بجايه من جمهورية الجزائر (مارس ١٩٧٤) وأثار كعادته فى كل عام عددا من القضايا والمعضلات التى تواجه الفكر الاسلامى فى العصر الحديث وقد اشترك فى الملتقى عدد كبير من الباحثين والعلماء من مختلف أنحاء العالم الاسلامى كما شارك فيه ممثلون للمسلمين فى الهند واليابان وكانت أبرز القضايا التى تناولها البحث (١) وضع الاقليات والجاليات عموما والاسلامية خصوصا فى كثير من بلدان القارات الخمس وواجب العلماء والمفكرين ورجال الاعلام نحوها(٢) دور المفكر اليوم وعلى مر العصور فى أمته تجاه الانسانية فى كل قضايا الساعة وآفاق المستقبل (٣) مساهمة الحضارة والفكر الاسلامى فى مختلف العلوم والفنون والتراث الانسانى على العموم .

وقد اشارت الدكتورة ليلى الصباغ من اساتذة التاريخ بجامعة دمشق الى الدولة العثمانية اشارة ظالمة حين قالت : أنها اسلمت البلاد العربية لقمة سائغة للاستعمار الغربى . وقد تصدى لها عدد من الباحثين الجزائريين وعرضوا أوجهة

نظرهم ازاء الدولة العثمانية والدور الكبير الذى قامت بـه ازاء حماية المغرب كله من الغزو الاوربى وتوالت المطالبة بمعرفة دور المشرق وقد تصدى كاتب هـذه السطور لذلك فقـال :

رغبة فى تغطية قضية الدولة العثمانية بوجهة نظر المشرق والعرب ومصر بالاضافة الى وجهة النظر المغربية الجزائرية فى هذه المسألة نقول . لقد تأثرنا فى مصر والمشرق فى كتبنا المدرسية وابحاثنا التاريخية بوجهة النظر الغربية تجاه الدولة العثمانية ، وهى وجهة خاصة للغربيين ، نتيجة التوسع التركى العثمانى فى اوربا ، والمقاومة التى عرفتها مناطق البلقان وغيرها فى القرن التاسع عشر ، وقد نقـل الاستعمار البريطانى فى مصر ، والفرنسى فى سـوريا ، وجهة النظر هذه الى كتب التاريخ التى تدرس فى مدارسنا وجامعاتنا ، كما تأثر بها بعض مؤرخينا متابعة النظرة الغربية ، أو تحت تأثير الدعوات الاقليمية كالفرعونية والفينيقية وغيرها ، غير ان هذه النظرة تعمقت من بعـد وبلغت اقصى غاياتها فى تجاوز الحقيقة ، على اثر ظهـور الصحافة العربية التى حررها واخرجها اللبنانيون المـارون ، خريجو معاهد الارساليات ، واصحاب العداء الواضح للدولة العثمانية .

وزاد هذه النظرة عنفا وتعصبا : تلك المحـاولة الخطيرة التى طرحتها الصهيونية العالمية بعد عـام ١٩٠٢ لتشويه شخصية السلطان عبد الحميد ورميه بالاتهـامات كأمثال السلطان الاحمر والمستبد العثمانى وغيره ، وكلهـا كانت محاولات اريد بها تهيئة الاذهان للقضاء عليه وانتزاعه

من مكانه، وقد عاونت صحف المقطموالأهرام والهلال والمقتطف وكلها كانت لبنانية الاصل فى هذه الحملة وكان ذلك على اثر الموقف الحاسم الذى وقفه السلطان عبد الحميد من المحاولات المتصلة التى جرت خلال الاعوام السابقة لعام ١٩٠٢ والذى ارسل فيه السلطان خطابه التاريخى الى الصحفى اليهودى تيودور هرتزل صاحب كتاب الدولة اليهودية ومؤسس الصهيونية الحديثة وقد جاء فى هذا الخطاب بالنص :

قولوا للدكتور هرتزل لا يتصل بى مرة اخرى ، ان بلادى تفضل ان تظل مدينة على ان تسدد ديونها من ذهب اليهود ، ان فلسطين هى بلاد العرب ولا استطيع ان افرط فى شبر منها . وكان الدكتور هرتزل قد عرض على السلطان خمسين مليونا من الجنيهات الذهب لخزانة السلطان الخاصة الى مشاريع اخرى كثيرة لدعم الدولة العثمانية اقتصاديا .

وقد سجل هرتزل فى مذكراته كيف حاول اغراء ذلك الرجل الكريم اشد اغراء ثم كشفت وثائق التاريخ من بعد كيف جرت المحاولات لقتله ثم اسقاطه وقد اغرى اشد اغراء وهدد اشد تهديد ولكنه صمد صمودا مشرفا وظل موقفه هذا محجوبا عن الصحافة وعن المدارس والجامعات وكتب التاريخ سنوات طويلة حتى ترجمت مذكرات هرتزل فى السنوات الاخيرة .

وظل اسم السلطان عبد الحميد يذكر فى كتبنا المدرسية مشفوعا بأبشع الاتهامات حتى احق الله الحق وكشف ذلك الزيف الذى حاول به الاستعمار وحاولت الصهيونية ايقاع

الفرقة والخلاف بين العرب فى مصر والشام وبين الدولة العثمانية .

وللحقيقة فاننا يجب أن نفرق بين عهدين فى تاريخ علاقاتنا بالدولة العثمانية : فترة السلطان عبد الحميد التى تنتهى عام ١٩٠٨ باستيلاء الاتحادين تلاميذ حزب الاتحاد والترقى وأتباع الماسونية وربائب الدونمة وبين الفترة التالية التى استمرت حتى عام ١٩١٨ وهى الفترة التى تمثل اسود صفحات العلاقة بين العرب والترك، وهى ليست من حساب الحكم التركى الاسلامى ولكنها مرحلة متقدمة لخدمة الصهيونية العالمية ونصرها وتشكيل أول محاولة لضرب الوحدة الاسلامية العربية ، باعلاء الطورانية ، ومحاولة تتريك العرب فى سوريا وتعليقهم على المشانق ، هذه الفترة وحدها هى التى يقف منها العرب فى سوريا موقف الخصومة للترك وهى ليست من حساب الدولة الاسلامية العثمانية فى الحقيقة .

كذلك فان النظرة الى الدولة العثمانية عام ١٩١٦ م عندما انضمت الاجزاء العربية فى العراق وسوريا ومصر اليها ، فانها فى التحليل التاريخى الدقيق ليست سوى التقاء بين عنصرين مسلمين . وقد وجدت من جانب العرب تقبلا صادقا ، فهى ليست فى حقيقتها الا محاولة طبيعية من محاولات الالتقاء والتكامل بين أجزاء العالم الاسلامى فى مواجهة الاخطار وقد جاءت هذه الوحدة الاسلامية بين العرب والترك على اثر ضعف قوى المماليك وتعرض الاجزاء العربية وخاصة الشام ومصر لتجدد الغزو الصليبى . والمعروف أن العرب فى مصر وسوريا قد رحبوا بالوحدة الاسلامية

العثمانية ولم يعارضوها ، حيث وجدوا فى العثمانيين اخوانهم فى العقيدة والدين منتعشا جديدا للاسلام وقوة شابة بدوية مقاتلة رفعت راية الاسلام خفاقة عالية . وقد أكد الباحثون أن هذا الالتقاء بين العرب والأتراك قد حمى العالم الاسلامى أكثر من اربعمائة عام من الغزو الصليبى للمرة التالية .

ومن الحق ان يقال أن العثمانيين قد قاموا فى هـــذه المرحلة الاولى بالأخذ بمفاهيم الاسلام فى نطاق الحـــكم وتحركوا من خلال اطاره . ويشهد المؤرخون غير المتعصبين على الاسلام أو الناقمين على الدولة العثمانية بأن العثمانيين قد اقتفوا اثر الخلفاء الاولين فى العدل والتســـامح وتمثلوا أعمالهم واتخذوهم قدوة وعملوا على جمع القلوب اليهم بتقدير العلماء وانشاء المساجد والمدارس ومن هنا فقــــد جرت محاولات البحوث الاستعمارية على وصف العلاقة بين العرب والترك بأنها نوع من الاستعمار وهى ليســــت كذلك فى الحقيقة وانما هذا من النظريات المدخولة التى يحاول الغزو الفكرى والتبشير اذاعتها لاقرارها فى الاذهان .

ولقد مرت الدولة العثمانية ككل كائن حى بمرحـــلة القوة ثم بمرحلة الضعف ، ولكن السلطان عبد الحميد كان يعرف أساليب الاستعمار ويواجهها فى دهاء وبراعة وقد شهد جمال الدين الافغانى حين التقى به بأن عبد الحميد يدبر لاوربا فى مواجهة كل محاولة ردا وفى مقابل كل مؤامرة أمرا .

لم يكن الخلاف أذن بين العرب والترك ولكنه كان بين العرب والاتحاديين دعاة الطورانية فلنفرق دائما بين هــذه المراحل ولنعرف أنه قد نشأ فى مصر والبلاد العربية الآن تيار

قوى لتصحيح هـذه الاخطاء على ضـوء ما كشفته الوثائق من بروتوكولات صهيون أو ما نشر عن مؤامرات الماسونية على النحو الذى يعيد الحقائق الى نصابها فى طريق الالتقـاء العربى الاسلامى المتجه الى وحدة الفكر الاسلامى كمقـدمة للوحدة الاسلامية آلتى هى امل المسلمين فى مشارق الارض

* * *

قضية الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى

تناولت الابحاث فى الملتقى الاسلامى الثامن فى ولايـة بجاية بالجزائر : قصة الحضارة الاسلامية ، واستطاعت أن تقدم اضافات جادة وخصبة ، وصححت كثيرا من الاخطـاء ، وكشفت عن الغمط الذى لقيته هذه الحضارة ، فى ابحـاث الاوربيين الغلاة فترة طويلة . وكانت فرصة جديرة بأن تنتهز للدعوة الى انشاء مادة دراسية فى المدارس والجامعـات العربية الاسلامية ، يطلق عليها اسم (مقـدمات المناهج والعـلوم) ، يتوفر عليها باحثـون غيـورون ، يكون من شأنها أن تقدم لشبابنا دراسات فى الاجتماع والسـياسة والاقتصاد والقانون والطب والتربية : الصورة الحقيقية لما قدمه المسلمون فى هذه المجالات الانسانية كلها ، والذى هو دون مبالغة : الاطار الحقيقى للفكر والحضارة والعـلوم التجريبية والعلوم الاجتماعية والانسانية ، قبل أن تنحرف عن طريقها الاصيل ، الى الاستجابة لاهواء الذات ولمطـامع البشر .

ان من الأسف البالغ أن يدرس ابناؤنا هذه العـلوم

الحديثة مجتثة عن اصلها ، فيحسون ابان دراستها أنهم عالة على فكر غيرهم ، أو انهم يقتبسون العلم والفن من الامم الأخرى ، بينما كان لآبائهم دور اى دور فى تكوين هذا العمل، وبناء هذا الصرح ، ولا ريب أن من حق شبابنا على جيلنا أن يكشف له هذه الحلقة المفقودة ،ليعرف ان فكره الاسلامى القرآنى كان وسوف يكون بالفعل قادرا على تقديم اضافات هامة وحاسمة ، على مدى الازمان والاجيال .

ان من شأن هذا الفهم ان يحول دون ان يقول واحد من الباحثين أو اثنان أو ثلاثة انه ليس فى الاسلام غير العواطف والقديم والدين والتراث ، ان الذى يشكله الفكر الاسلامى ليس تراثا بمفهوم الغرب الذى يتصور أنه شىء مدفون فى المتاحف ، ولكنه ميراث حى متصل لم يتوقف ابدا عن العطاء والعمل ، ولم تفصله حواجز من القرون والبيئات ، كما حدث للفكر اليونانى الذى يقيسون عليه . أن من شأن هذا الفهم ان يزيد شبابنا قوة روحية وعقلية ، فى عقيدتهم الجامعة ، تملأ نفوسهم بالثقة ، وتدفع عن أرواحهم تلك الشكوك الخطيرة ، والشبهات المثارة ، التى تحاول ان تصورهم وكأنهم متسولون لنظريات الغرب وفكره .

ولابد أن تكون هذه المقدمات صريحة وواضحة فى الكشف عن تلك الجذور ، وأن نستقصى هذه الاعمال فى كل مجال ، بحيث يدرس طالب الطب انجازات الطب ، وكذلك طالب العلوم التجريبية ، وكذلك طالب دراسات النفس والاجتماع ، أو التربية أو القانون . ومما يذكر فى هذه المناسبة أنى التقيت بأحد الشباب المصرى الذين عادوا بعد دراسة التربية وحصلوا على الدكتوراه من انجلترا ، ولما سألته قال لى أن الاساتذة

الانجليز قالوا له : لم تجيء الى هنا ؟ وما من شيء عندنا فى التربية الا اقتبسناه من الغزالى والعبدرى وابن سينا وابن خلدون وهذه المــادة وحدها هى التى شكلناها من جديد !!.

كذلك فقد أعطى ميراثنا فى الشريعة الاسلامية لحضارة الغربية عطاءات لا يمكن أن تكون كما وصفها البعض بأنهــا قديم أو تراث او عاطفة .

لقد اعلن احد العلماء فى مؤتمر لاهاى منذ سنوات ان الامام الشافعى هو اول من وضع نظرية التعايش الســلمى وان ما يقوم به علماء السياسة والاجتماع اليوم بدراسة فى ذلك المؤتمر عن التعايش السلمى الحديث لا يختلف فى الشكل والمضمون عما ذهب اليه الامام الشافعى ! .

كذلك اعلن فى مؤتمر علمى منذ سنوات ان (البيرونى) قد قدم فى كتابه « الجماهر فى معرفة الجواهر » مفهــوم الاسلام الاقتصادى فى الادخار واكتناز الأموال وانفاقها وفيما يتصل بعدم تركها التداول (وهذه النظرية هى أم الاقتصاد الحديث) . وقد بين البيرونى الخط الذى يترتب عليه عمليــة كنز الاموال وقال ان الحركة من ضرورات الحياة فاذا وقفت هذه الحركة وقعت الازمات الاقتصادية .

كذلك عرف ان الغزالى سبق (هربرت سبنسر) فى تصوير الدولة او المدينة بجسم الانسان فقد شبه الغـــزالى الملك بالقلب واصحاب المهن الحرة بأعضاء الجسم ، والشرطــه بعصب الانسان ، والوزراء بحس الادراك ، والقضــــاء بالشعور .

أما ابن القيم فقد عرفت له فى الابحاث الاخيرة مايكشف عن نظرياته واضافاته فى القانون ، فقد قدم نظريات لـــم تعرفها الدوائر القانونية فى اوربا الا فى العصر الحديث ، من امثال حرية التعاقد ، ومنع الحيل فى الاحكام ، واحياء عمل الفضولى المحسن ، والمحافظة على أموال الغرماء .

وما زلت اذكر أن واحدا من باحثينا تقدم عـــام ١٩١٠ برسالة الى احدى الجامعات الالمانية عن واحدة من هـــذه النظريات فأشار رئيس لجنة الامتحان بقوله : ان المانيا كانت تعتز بأنها هى التى استحدثت هذه النظرية ولكن ثبت الآن بالدليل أن المسلمين عرفوا هذا القانون قبل سبعمائة عام .

وبعد فان كل هذا يدعونا الى أن نطالب بانشاء مـــادة « مقدمات المناهج والعلوم » فى الثانويات والجامعات .

* * *

قضـــية الاصـــالة والتفتح

تناولت أبحاث الملتقى الاسلامى الثامن ، فى ولاية بجايا بالجزائر ، قضية الاصالة والتفتح وكانت كلمة الدكتور زكى نجيب محمود أشد هذه الكلمات جنوحا الى التفتح غير المتحفظ انطلاقا من مفهوم جزئى للاسلام وصفه بالعقلانية وكان قـد تناول ذلك فى كتابه ((تجديد الفكر العربى)) وتصدى كاتب هذه السطور للفكرة الغالية وما وراءها فقال :

ان محاولة فهم الاسلام فى مواجهة العصر تحتاج الى فهم الاسلام من مصادره الاصيلة وليست من اى الفكرين : فكر العقلانيين المعتزلة او الفكر الحدسى الجبرى او اى فكر غيره ، وذلك من خلال المرحلة التى قام فيها الصراع بين الفكر الهلينى الذى ترجم الى العربية فى القرن الثالث الهجرى ، وعلى الباحثين أن يدرسوا عقلانية الاسلام فى اطار القضية كلها ، وسيرون أن الفكر الاسلامى فكر جامع متكامل ، فقد وضع الاسلام للمسلمين منهجا جامعا بين العقـل والقلب ، ولذلك فان اعلاء شأن العقل وحده كان خروجا على مفهـوم الاسلام الصحيح ، وهو خروج عرض المعتزلة للهزيمـة ، وعرض فكرهم للانهيار ، تحت أضواء الاسلام الصحيح ، ومن هنا صحت تعديلات الامام ابى الحسن الاشعرى ومدرسة الامام احمد ابن حنبل ، اذ كان لابد للاسلام أن يعـود الى أصوله ، وأن يتحرر مما أصابه تحت تأثير التجـاوز مـع الفلسفة اليونانية الى الانحراف ، ولذلك فان اعادة العقلانية الآن مرتبطة بالفكر الغربى فى حاجة الى نظر .

هذه واحدة اما الاخرى فهى أن علينا ان نحدد موقفنا من ترجمة الفكر الغربى ، نحن نطالب بترجمة العلوم التجريبية ونقلها الى نطاق اللغة العربية لتتحرك فيها ولكن البعض يأخذ المبادرة ليدعو الى الترجمة المطلقة غير المحدودة وهو ما لا يراه الغيورون ، نحن لا نرفض ترجمة العلوم بل نطلبها ولكنا نحتفظ فى ترجمة الدراسات الاجتماعية والانسانية لتكون عامة فى يدى الناس ، نحن نترجم هذه الدراسات ولا نقول عنها انها علوم وانما هى نظريات وفروض لها أرضية ما اسلامية قديمة ثم نمت وتطورت فظل مجتمعاتها ، هذه نحن لا نرفض النظر فيها ، ولكنا نرفض تقبلها ، ونحن نترجمها الآن لنرد عليها ولنتعرف وجهة نظر الاسلام فيها ، ولدينا دراسات مقارنة الآن فى مفاهيم النفس والاجتماع والاقتصاد وغيرها .

ولكن لماذا نحن نتحفظ فى ترجمة أو تقبل هذه المفاهيم ؟

ذلك لأنها تختلف اختلافا أساسيا مع مفهوم الاسلام الأصيل الذى يجب ان نتحرك فى اطاره ، ومن ذلك :

١ ــ قضية التطور المطلق ، فالاسلام لا يقرها ولكنه يرى التطور فى اطار الثبات ويقيم نظاما كاملا فيه الثوابت وفيه المتغيرات .

٢ ــ قضية (نسبية الاخلاق) فالاسلام لا يقر تطور الاخلاق باختلاف البيئات والعصور ، ولكنه يرى ثبات الاخلاق لاتصالها بالنسان الثابت الطبيعة الجامع بين الروح والمادة

ولقد يختلف الفهم بين الاخلاق والتقاليد ، فالاخلاق فى الاسلام ثابتة والتقاليد متغيرة. الأولى لأنها جزء من الأساس الاسلامى، أما الاخرى فانها من صنع البشر ، غير أن أمثال دور كايم وليفى بريل وماركس وفرويد (وكلهم من اليهـود) الذين يتحركون فى اطار (بوتوكلات صهيون) فانهم ينطلقون من اطار الفلسفة التى لا تؤمن بالاصل الربانى المرتبط بالوحى والنبوة والقرآن وبذلك يكون هنـاك خلاف واسع بيننـا وبينهم .

٣ — مفهوم التقدم : فهو فى الغرب تقدم مادى صرف لا يتوقف أمام أى حاجز ، أما فى الاسلام فهو مترابط جامع بين المفهوم المادى والمعنوى بحيث لايضحى بالمعنوى من أجل المـادى ويرجع هذا التحفظ الى انه حتى تجربة العـلوم الاجتماعية فى أوربا — وهى تجربة خاصة — قد فشلت فشلا ذريعا فى بيئتها فكيف نقبلها نحن .

ومن هنا يتحتم علينا ان نصل الى شىء هام جد وخطير هو بناء قاعدة الاساس للفكر الاسلامى التى ننطلق منها فى النظر الى الفكر الغربى الوافد فى هذه المجالات التى تتطلب يقظة ووعيا ، والتى تختلف اساسا عن منطلقاتنا الاسلامية القائمة على النظرة الجامعة (أولا) المترابطة بين الروح والمادة (ثانيا) والقائمة على نظرة متكاملة بين الدنيـا والآخرة . علينا بناء « قاعدة الاساس » من مفهوم الاسـلام الجامع « عقيدة وشريعة وأخلاقا » ثم الانطلاق من هذه القـاعدة للعمل على بعث التراث القديم ، أو ترجمة الوافد ، وهـذه القاعدة تنطلق من دعائم ثلاث :

(اولا) : النظر فى المصطلحات المطروحة الآن فى أفق الفكر الاسلامى واعطاؤه المضامين الاسلامية تمهيدا لاحلال المصطلحات الاسلامية محلها .

(ثانيا) : وضع الصيغ الملائمة للعلاقات ، بين القيم المترابطة والمتصلة فى الفكر الغربى ، والتى يحاول التغريب ايجاد الخلاف فيها : امثال العلاقة بين الثقافة والحضارة ، العروبة والاسلام ، العقلانية والروحية ، اللغة والفكر ، العقيدة والشريعة ، الدين والعلم الخ الخ .

(ثالثا) : تصفية الفكر الاسلامى من خلافات الفرق القديمة التى انتهت بالانتفاع بمعطياته بعد تحريرها على نحو صالح فى معالجة التحديات المعاصرة والاستعانة بها على النحو الذى يمكن من ايجاد الحلول الملائمة للمعضلات والنوازل والوقائع التى تواجه المجتمع الاسلامى الحديث .

ولنذكر ان المسلمين على مدى العصور كانوا شديدى الحذر من السقوط فى التبعية أو الذوبان فى غيرهم وكانوا يقاومون محاولة احتوائهم الفكرى بكل ما يملكون من قوة .

حاشية : ان للفكر الاسلامى موقفا متحفظا من أسماء كثيرة ترد بدون تحفظ ، مثل اخوان الصفا وابن الراوندى وابن عربى ومن مختلف النظريات الفلسفية « لا الطبية أو التجريبية » التى قدمها الفارابى وابن سينا وكذلك نجد هذا الموقف من الحلاج، والسهر وردى ، مما يتعارض مع مفهوم التوحيد الخالص الذى هو اس الاساس فى الفكر الاسلامى .

***

دار العلوم للطباعة
القاهرة، ٨ شارع حسين حجازي (القصر العيني)
ت، ٣١٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ٤٠٢٩ — ٨٢
الترقيم الدولى ٦ — ٠٠٤ — ١٤٢ — ٩٧٧